الأم شيئًا، وهبت من مجلسها مذعورة وأسرعت إليها الفتاة وأخذتها بين ذراعيها دون أن تجد منها امتناعًا أو إباء، وتنظر «مُنى» ومن حولها من بنيها ومن نساء الدار فإذا المرأتان قد اعتنقتا، وإذا دموع غزار تمتزج وتجري على وجهين قبيحين ملتصقين، فأما الشباب فيوشكون أن يضحكوا لولا بقية من حياء وخوف من أمهم، وأما «مُنى» فلا تملك دموعها أن تنهل، وإذا هي تبكي صامتة، ثم تنهض متثاقلة وتسعى بطيئة حتى تبلغ هاتين المرأتين، فتضع على رأس كل واحدة منهما قبلة مبللة بالدموع، ومنذ ذلك اليوم عاد إلى نفيسة شيء من رُشدها، فعرفت أنها أم، وأن لها ابنة بجوارها تدعى جلنار، وابنة أخرى بعيدة عنها تدعى سميحة، عاد إليها شيء من رشدها، ففارقها الذهول، ولكن لم يُفارقها بؤس النفس هذا الذي يضطر صاحبه إلى الإذعان، ويُلجئه إلى زاوية ضئيلة من زوايا الحياة يلزمها ولا يبرحها، يرى أنها خُلقت له وأنه خلق لها، وأن القضاء قد جعلها له قبرًا حيًّا حتى يأتي اليوم الذي ينقل فيه من هذا القبر الذي يُدفن فيه الأحياء إلى ذلك القبر الذي يُدفن فيه الموتى.

أفاقت نفيسة من ذهولها وعرفت بعض أمرها، ولكنها ظلت ضئيلة ذليلة، تتحرك فكأنها الشبح، وتتكلم فكأنها الصدى، ولكن أي شبح وأي صدى؛ شبح هو الحزن بعينه، وصدى هو إلى الغناء النادب أقرب منه إلى الصوت المألوف، ولكن منذ ذلك الوقت عاد إلى جلنار شيء من ثقة وحظ من أمل، لا لأنها انتظرت أن تُزَفَّ إلى سالم، فقد جعلت تيأس من هذا الزواج يأسًا يزداد من يوم إلى يوم، ولا لأنها كانت تستطيع أن تلجأ إلى أمها فتبثها ما تجد من حزن، ولكن لأنها كانت تنظر إلى أمها فلا تقابل نظرتها تلك النظرات الغافلة الذاهلة الشاردة، وإنما كانت تُقابل نظرات تفهم عنها، وتتحدث إلى قلبها حديثًا تفهمه دُون أن يدور لسانها في فمها بالكلام القليل أو الكثير، وكان هذا الحظ الضئيل من الحب الصامت يُغني هذه الفتاة وينقع ظمأها إلى الحنان، بعد أن فقدت حنان خالتها، وكادت تفقد حنان إخوتها الذين جعلت قلوبهم تقسو، وأكبادهم تغلظ، ونفوسهم تجفو، وذاكرتهم تنسى ما قدمت إليهم أختهم من معروف.

ولم تكن «جلنار» في حاجة إلى أن تبحث عن العلة التي أَجَّلت زفافها إلى سالم ثم ألغت أمر الزواج إلغاء؛ فقد كان يكفي أن ترى وجه أمها وأن تنظر إلى وجهها في المرآة، فيغنيها ذلك عن كل سؤال.

والواقع أن أمر سالم لم يكن يسيرًا ولا سمحًا، وإنما كان عسيرًا لا يخلو من تعقيد، لقد نشأ هذا الفتى ساخطًا أشد السخط، يرى أنه تَعِس سيئ الحظ، لم يكد يخرج